حسن سليمان

إنهم يعيشون على هامش الحياة . وهم الآن مهددون بأن يفقدوا الهامش أيضا . تعودنا دائما أن نقرأ أخبارهم على سبيل الاستمتاع والتسلية . كأنهم قد خلقوا للترفيه عن سكان المدن والعواصم الكبرى !

قبائل الصحراء الشرقية من هامش الحياة الى قلب الحياة

تصوير :
صبرى صلاح

ولكن حيا يعرض ٣٠ ألف مواطن من قبائل الصحراء الشرقية للمخاطر . فالأمر إذن يجب ألا يؤخذ على سبيل اللعبة والتسلية . فلقد آن الأوان لننظر إلى المشكلة بعد واعتهام ! كيف نحول بهم من هامش الحياة إلى قلب الحياة ؟ !

بدأ سكان الصحراء الشرقية في القاهرة مصادر أخرى للرزق . بدأوا يتنقلون من أماكنهم . ويتصلون بقبائل العابدة والبشارية الذين يعيشون على شريط ضيق على الحدود شمال أسوان . ويتبادلون معهم التجارة .

وكانت الفكرة أن الصحراء الشرقية لا تحوي الا الرمال والعقارب والحيات والطير من البشر . ويبدو أن هذا الاعتقاد قد انتقل إلى معظم دول العالم . وأصبحت الصورة أن هذه المنطقة من الدنيا تكاد تخلو من الحياة تماما . كما أدى بعض الدول الغربية إلى التطلع إلى الصحراء الشرقية كمنطقة من أصلح المناطق في العالم لالقاء بقايا ونفايات التجارب النووية فيها .

وإذا كان هذا التفكير في حد ذاته تفكيرا خاطئا . ويمكن أن يشكل خطورة على مصر كلها . فهو أكثر خطورة الآن حينما اكتشفت الحياة فجأة أو بمعنى أصح أعيد اكتشاف الحياة فجأة على أرض الصحراء الشرقية !

وإذا كان التاريخ القديم والحديث قد أطعمهم تجارب طويلة فإن الظروف الحالية قد أعادتهم بقوة على سطح الحياة من جديد ليكون لهم الدور الرئيسي والهام في إعادة الحياة عليها على أرض الصحراء .

لقد لعبت الصدفة في حياة قبائل الصحراء الشرقية أكثر من دور . أهمها حينما أمت مصر بناء السد العالي . وغمرت المياه مساحات عظيمة من الأراضي وظهرت إلى الوجود بحيرة السد العالي .

منذ هذا التاريخ انقطع مورد رزق حيوي وخطير . وهو مورد الرزق الأساسي لدى قبائل الصحراء الشرقية . فلقد كان اعتمادهم الأول على مايجلب عليهم النيل في أشهر الصيف من مياه وروده بها فيأتهم وتثبت فيها النباتات والأعشاب التي يعشبون عليها ويعيش حيواناتهم . كما انقطع مورد رزق آخر متمثل في التبادل التجاري بين هذه القبائل وأهالي النوبة الذين غمرت المياه بلادهم . تلك التجارة التي كانت تتم في أشهر الشتاء . وبنتيجة هذا التحول الخطير وجدت القبائل نفسها فجأة حول عدد ضئيل جدا من الآبار لاتكاد تعد على أصابع اليد الواحدة في صحراء شاسعة طولها ٣٠٠ كيلو متر تمتد من أسوان إلى السودان . وكان من الطبيعي أن ينشب التحارب على المياه بين القبائل والعائلات وبين النباتات القليلة التي تنمو في الصحراء . وكان من الطبيعي أيضا أن تظهر الجريمة بشكل مختلف عن هذه المجتمعات البدائية . كما ارتفعت نسبة الوفيات ارتفاعا شديدا في السنوات الأخيرة . وحتى الآن ونتيجة لعزلتهم الشديدة فهم لايستطيعون تحمل مداهمات . وبالرغم من اختلاطهم بالنوبيين وبعض القبائل العربية نسبيا من الناحية كالعابدة والبشارية فهم يصورون أن هذه المياه التي غمرت الأراضي مكرمة لحاكم السد العالي هي مجرد سيول سوف تأتي عليها وقت فتحجب ويعود جيانهم إلى مجاريها الأول .

بدأ سكان الصحراء الشرقية في القاهرة مصادر أخرى للرزق . بدأوا يتنقلون من أماكنهم ويتصلون بقبائل العابدة والبشارية الذين يعيشون على شريط ضيق على الحدود شمال أسوان وتبادلوا معهم التجارة . والطايفة من حالب وماعز من القبائل مقابل سكر وشاي وحوائج تموينية مثل الدقيق وغيره من جانب العابدة والبشارية . كذلك قاموا بالتبادل أيضا مع قبائل الحلفا دواب والبالكاب في سلع مقابلة . ولكن هذه المبادلات التجارية تتم في إطار محدود جدا . أو بمعنى أصح فهي تجارة لاتسمن ولاتغني من جوع . وحاولت هذه القبائل التعرض للموت جوعا حتى إنهم قاموا بعملية تحديد نسل حيواناتهم ومواشيهم عن طريق عزل الذكور عن الإناث . ومادام الموت هو المنتظر لهذه الحيوانات فلا داعي إذن لأن تأكل وتزاحمهم وتتنافس معهم طعامهم الذي يكاد يكون في أغلب الأحيان نبات الأرض وشرابهم من مياه الآبار المحدودة .

وإذا كان بناء السد العالي وإنشاء البحيرة الناتجة منه يشكل صدمة عنيفة في حياة بدو الصحراء الشرقية . إذ نتج عنه الإضرار بمصادر الرزق الأساسية . فهناك صدمة أخرى ولكنها معقدة في حياتهم إذ قامت الباحثة المصرية الثانية شهيرة فوزي بأول غزو للصحراء الشرقية وتمثل دراستها كاملة عن الحياة فيها نالت عنها درجة الماجستير من الجامعة الأمريكية . وكان موضوع رسالتها

التغيرات البيئية وآثارها على تدهور الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقبائل الصحراء الشرقية وخزان السد العالي.

وبناء على هذه الدراسة اهتم المسئولون عن التعمير ببناء المجتمعات الجديدة لمشكلة الصحراء والحياة فيها. فقد تقدمت شهيرة فوزي بمجثها في فبراير ١٩٧٨ وفي نهاية العام نفسه ظهر إلى الوجود أول مشروع لتوطين أهالي المنطقة من بدو وعربان رصبانيين. وخلق تجمع جديد مركزه وادي العلاق الذي يتوسط المنطقة بين أسوان والسودان.

وقد انتهت أكتوبر في عدد سابق لها في العام الماضي بعض التفاصيل عن أسباب اختيار وادي العلاق وعن المشروع الرعوي الذي واكب المشروع الاقتصادي نفسه.

ويبدو أن الباحثة شهيرة فوزي لم تكتف بإثارة قضية بدو الصحراء الشرقية في بحثها فقط.. ويبدو أيضا أنها لم تكتف بحث المسئولين للقضية، ولكنها استمرت في البحث والدراسة ومتابعة خطوات تنفيذ المشروع لتقرر خطوة خطوة. ولتسفر هذه الدراسة عن عدة حقائق هامة وخطيرة قبل بحثها الجديد..

تقول شهيرة: إن التركيز الأولي فقط في دراسة أثر الجدوى الاقتصادية للمشروع سوف يسبب ضياع حقوق السكان الأصليين للمنطقة. وبالتالي يضيع منا الهدف ونحن نسعى وراء الوسيلة. وتضيف أخيرا أنه حدث خلط لدى القائمين على المشروع بين الهدف والوسيلة. فالهدف كما تصوره هو تنمية المنطقة اجتماعيا واقتصاديا وحضاريا وخلق مجتمع جديد حول البحيرة مؤلف ومتجانس بحيث يعمل كل استغلال لثروات مصر الموجودة في المنطقة من زراعة وأسمان ومناجم ومحاجر ومراعي وثروة حيوانية وغيرها.

هذا هو الهدف.. ولكن ما الوسيلة؟ هذا نقطة الخلاف أو نقطة الخلط. مثلا جاء في المشروع بناء ٣٠ منطقة جديدة لإيواء سكان المنطقة. وسكان المنطقة من ثلاث فئات: البدو، والنوبيين، والصيادين. فهل من المعقول أن يوضع نمط واحد من المساكن لسكن كل هذه الفئات؟ هذا مستحيل. وحتى أدلل على كلامي أقول: إن بدو الصحراء الشرقية يعيش العائلة منهم في خيمة تسمى «البيش» وهي خيمة صغيرة ارتفاعها بسيط عن الأرض حيث ينحني الرجل حين يدخلها. هذه هي حياتهم وهذا هو مسكنهم الذي اعتادوا عليه.

وجاء المهندس وصمم لهم بعض المنازل في وادي العريت وحاول أن يستفهم من «البيش» المسكن الملائم لهم. ومع البناء من الطوب والأسمنت. فإذا كانت النتيجة؟ جاءت المنازل على شكل الخيمات (المقلوب) ولم يحتمل البدوي حرارتها في النهار وبرد الشتاء الجاف وأحرقها واستعملها كوسيلة للدفء في ليالي الشتاء الباردة. ويعلق شهيرة: إذن فالصعب جدا أن يقوم مشروع على الناحية المادية فقط دون النظر إلى جوانب أخرى كالجوانب الاجتماعية والمعيشية والبيئية التي تشكل حياة الناس

مابين ستة آلاف وسبعة آلاف جنيه لكل بناء بيت البدوي الذي عاد إلى موطنه القديم، واستوطن حول بحيرة السد ليكون نواة لمجتمع جديد في المنطقة. ومن الطريف والطريف جدا ألا أحد في بيت البدوي حظيرة للحيوانات والمواشي. فالمهندس الذي صممه لم يضع ذلك في الحساب. كذلك لم يراع البرودة الحارة في المنطقة. فالبناء من الأحمر الطوب والطوب الأحمر. ولكن من نتيجة ذلك أن اختنق بعض أطفال النوبيين وماتوا من شدة الحرارة. والغريب أن العمال في الأماكن مستمرا. بالرغم من أن النوبيين قدموا للمسئولين كهوف لتنبية لحدة السد العالي وعرضوا أن يصلحوا نصف ما يكلفه البناء. ويقولوا هم بناء المساكن للائقة لهم من الطين على طريقتهم. ولكنهم قوبلوا بالرفض واستمر البناء بالطريقة الخاطئة مما أدى إلى عدم استطاعة قبائل النوبة كبير الحجم كالبقر والجاموس من دخول التجهيز (كوم امبو) إلى المواطن الجديد. فضلا عن عدم احتمال الحرارة داخل المنازل خاصة بالنسبة للأطفال. لذلك هجروا المنازل وبدأوا يشيدون منازل خاصة بهم على نظامهم الخاص.

والمهندس حسن فتحي يعلق على هذا الموضوع. يقول: إن المهندس الذي تسبب في قتل أطفال النوبة عن طريق الخطأ في المرة السابقة. سيقتلهم هذه المرة عمدا ومع سبق الإصرار!!

الدخول لمنطقة البحيرة بتصريح.. والخروج منها أيضا بتصريح. وقد يكون هذا الإجراء أمنيا طبيعيا للأجانب عن المنطقة أو الزائرين لها. وقد يكون السبب دواعي الأمن أو غيرها. ولكن لماذا تصريح الدخول والخروج بالنسبة للصيادين فيها؟ والقصد بذلك الصيادين. فهناك أكثر من ثلاثة آلاف صياد من قبائل الصعيدة (قنا وسوهاج والأقصر وأسوان) يخترقون الصيد في بحيرة السد. يجمع كلهم من الرجال. فالزوجات في البلاد. وبعاد الرجال هنا للعمل. ولمدة أربع أو خمس سنوات لأي الرجل زوجته أو أولاده. والسبب التصاريح والتصاريح في أيدي كبار المعلمين.

الذين يحتكرون جهود الصيادين ويقيدونهم دائما بالديون حتى لا يهجروا العمل. ومادام الصياد مدينا لصاحب العمل فليس من حقه طلب تصريح. كل حقوقه أن يتنازل من العمل مع أحد المعلمين إلى معلم آخر حيث يسترح الآخر بتكبيله بديون جديدة. وهكذا يصبح الصياد بلا زوجة ولا مأوى. أيضا فهو مضطر للمبيت في قوارب الصيد حتى لا يحتك به الحشرات السامة على البر. وتقول شهيرة: إن هناك تعليمات مشددة بخصوص الماء هذه التصاريح ولكنها للأسف لم تنفذ حتى الآن. ومازال الصيادون يعانون من البحيرة أمامهم والمعلمين وراءهم!!

وتختم الباحثة شهيرة فوزي كلامها قائلة: هذه المشاكل تقل سهلي المنال لا الحصر. فهناك العديد من الظروف الاجتماعية الأخرى التي يجب مراعاتها عند التفكير في بناء مجتمعات ومستوطنات جديدة. ومحاولة إصلاح البوعية الأدبية والاجتماعية لتنمية الإنسان حتى لا تنتج عن مثل هذه المشروعات نتائج عكسية على الخط المستقيم. ويجدد الثروات الأولى استخراجها على يد هذا المجتمع الجديد في المشاكل والمنازعات القبلية بين قبائل المنطقة. والمطلوب عدم البدء في تنفيذ أي مشروعات عمرانية للمنطقة دون الدراسة المستفيضة لتوعية الإنسان وحالته الاقتصادية والاجتماعية وقدرته على التأقلم على الحياة حتى لا تتبدد ثروات ويذهب معها الجهد المبذول دون نتيجة تذكر.

●●●

وأخيرا.. كنوز مصر المنسية.. الاسم الذي أطلقته «أكتوبر» على الثروات الموجودة في منطقة الصحراء الشرقية (حول بحيرة السد العالي.. مساحات شاسعة من الرخام.. الرافد صالحة للزراعة.. ثروة حيوانية.. نباتات طبية نادرة.. ثروة سمكية.

هذه الكنوز في حاجة إلى اكتشاف واستخراج واستغلال.. وحتى يتم ذلك بأيدين المجتمع الجديد.. مجتمع القبائل والصعايدة والنوبيين.. يجب أن تضمل هذه الأيدي وتذوب وتكتسب المهارة والخبرة. ولكن قبل كل ذلك يجب أن يراعى أي مشروع يقام النواحي البيئية والبيئية والاجتماعية لهذه المجتمعات قبل أن نفكر في النواحي المادية.

هنا.. وهنا فقط نستطيع أن نقول إن هؤلاء الناس انتقلوا من هامش الحياة إلى قلب الحياة.

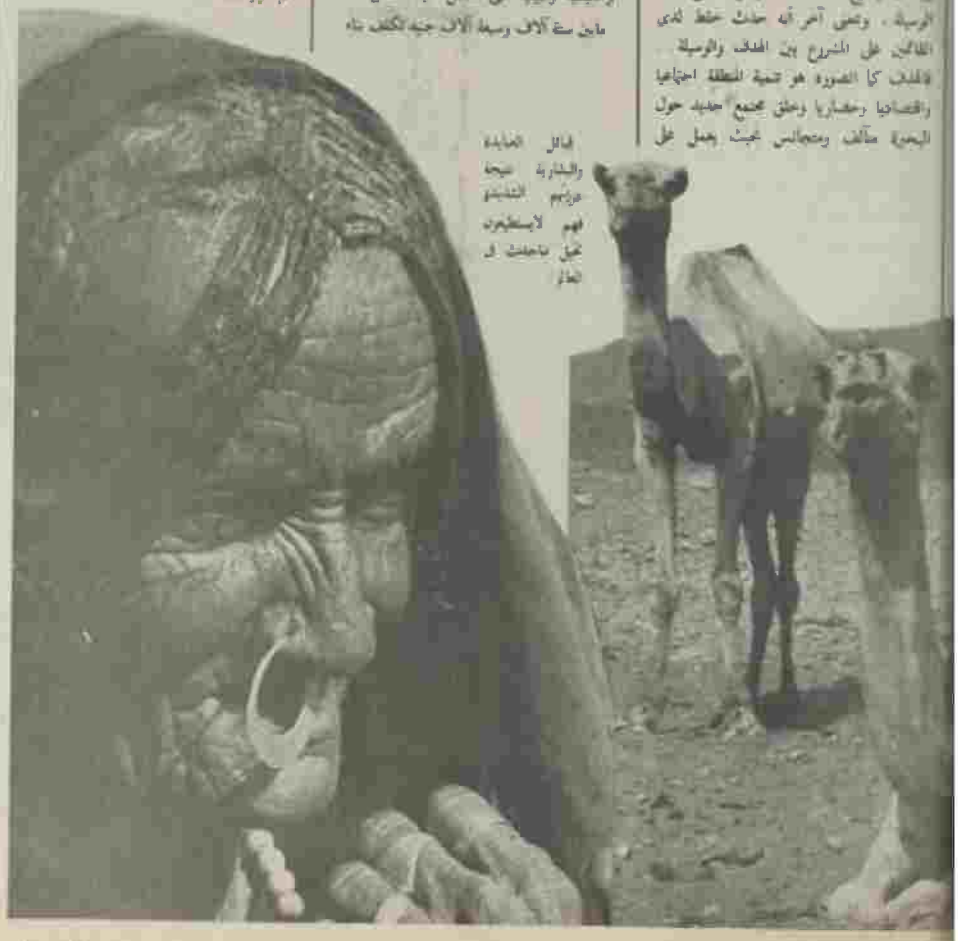

قبائل العابدة والبشارية نبيحة عرايس التنمية فهم لايستطيعون تحمل تداعيات أي تغيير